جرائم جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر أثناء عمليات التّوغل العسكري
1870-1830

الدكتور قاصري محمد السعيد
أستاذ محاضر بقسم التاريخ
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة. الجزائر

مقدمة (طرح الإشكال):

إنّ المتتبِع لتاريخ الثّورة الفرنسية التي نظّر لها مجموعة من الفلاسفة والمفكّرين مثل: "جان جاك روسو" و "مونتيسكو" و "فولتير"، تحت شعار: "الحُرية، الأُخوة، والمُساواة"، وجسّدها عسكريًا "نابليون بونابرت"، وكانت بِدايتها بالهُجوم على سِجن "الباستيل" الذي يُمثل رمز الظُّلم والطُّغيان في فرنسا يوم 14يوليو/تموز 1789[1]، قَد يَنساق المرء وراء هذه الثورة ويتأثّر بِشعاراتها البرّاقة والجذّابة، بل يتعاطف معها ويُدافع عنها بِكل ما أُوتي من قُوة، خاصة أُولئك المقهُورين من الشُّعوب المُستضعفة والمغلُوبة على أمرها، داخل القارة الأوربية وخارجها.

إنّ السُّؤال المطروح في هذه الدِّراسة هو إلى أيّ مدى نجحت فرنسا في تطبيق هذه الشِّعارات؟ وماذا كانت تقصد من ورائها؟ أم أن هذه الشِّعارات ما هي إلاّ حيلة وخديعة سياسية اختفت ورائها الثّورة الفرنسية لتحقيق أهدافها الباطنية والخفية في قارة أوربا وخارجها؟ وبالموازاة مع انطلاق الثّورة الفرنسية ضد الأنظمة الملكية الرَّجعية في أوربا، وَظّف مُنظرو الثورة الفرنسية شِعارات أخرى أكثر حماسة وخُطورة، كشعار "الثورة ضد الملوك وليست ضد الشعوب"؛ وهو ما فتح الباب على مِصراعيه للشعوب الأوربية أن تَحتضن الثّورة الفرنسية وتثُور ضد أنظمتها، التي لم تجد بُدا من الاستسلام لها أو طلب النجاة لنفسها، وفق آليات وطُرق متعددة، كاللُّجوء إلى روسيا القيصرية وبريطانيا، والتَّخفي عن أنظار الجيش الفرنسي حِفاظا على نسلها وعرقها، ولكن هل "نابليون بونابرت" بعدما دانت له مُعظم القارة الأوربية بالطاعة والولاء القسري اكتفى بما حقّقه من مكاسب جيوسياسة حسب ما خطّط له مُنظرو الثورة الفرنسية؟ أم راح يتطلّع إلى المزيد من سفك الدِّماء والتوسع على حِساب الضُّعفاء؟.

لا شك أن تطلُّع "نابليون بونابرت" وتَشوُّفِهِ إلى التّوسع خارج قارة أوربا لم يكن وليد النجاحات التي حقّقها في أوربا، بقدر ما يعُود إلى الفِكر السِّياسي الاستعماري الذي تبنّاه قادة الثورة وفلاسِفتها، فِكر قائم على الاغتصاب والقتل والتشريد، طالما هناك مصلحة تتحقق ومكاسب جُغرافية واقتصادية تتجسد على أرض الواقع، ولكن يبقى السُّؤال المطروح هو: إذا كان "نابليون بونابرت" رفع الشِّعارات السابقة ضد ظُلم وطُغيان الأنظمة الملكية الرَّجعية في أوربا، فما هو مُبرِّره في ممارسته للظلم والطغيان نفسه خارج قارة أوربا، وإذا كان مُبرره مُحاربة الرَّجعية في أوربا فما هو مُبرره في توسيع دائرة حربه خارج قارة أوربا؟ ولماذا داس على شِعارات ومبادئ الثورة الفِرنسية؟ وهذا من خلال سياسته الاستعمارية التي راحت ضحيتها في البداية مصر سنة 1897 ثم بالتّشوف إلى احتلال الجزائر سنة 1808، من خلال المشروع الذي أعدّه بهذا الخُصوص[2]، لكنه لم يُكتب له النجاح إلاّ في سنة 1830-طبعا بعد وفاته في المنفى يوم 8 ماي 1822 بجزيرة سانت هيلانة بالمحيط الأطلسي[3]- ما هي السِّياسة الاستعمارية الفرنسية التي طُبقت في الجزائر، وهل احترمت فيها فرنسا الشِّعارات البراقة التي رفعتها خلال الثورة الفرنسية؟ أسئلة جوهرية ووجيهة سنُحاول الإجابة عنها ضِمن هذه الدِّراسة.

لقد كان أول ما دشّنه "نابليون" في حروبه خارج القارة الأوربية، هُجومه الوحشي والبربري على مصر واحتلالها يوم 2 يوليو 1897[4]، احتلال استمر إلى غاية سنة 1801، حيث اضْطرته ظُروف المقاومة المصرية، ومُستجدات الأحداث على الجبهة الأوربية أن يعود

---

[1] عبد الحميد، البطريق، عبد العزيز، نوار: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص367.

[2] بنور، فريد: المخططات الفرنسية تجاه الجزائر 1782-1830، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ، ص376.

[3] الياس طنوس، الحويك: تاريخ نابليون الأول، المجلد الثالث، دار مكتبة الهلال، بيروت، دون تاريخ، ص-ص109-110. يراجع أيضا التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص481.

[4] محمد عبد الكريم، الوافي: يوسف باشا القرمنلي والحملة الفرنسية على مصر، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، ط1، 1984، ص84.

إلى فِرنسا يجُر ذُيول الهزيمة[1]، وبالتالي فهذا العمل العُدواني يُبيّن وبكل وُضوح تنكُّر فرنسا لمبادئها النبيلة الرامية لتحقيق العدالة والأخوة والمساواة بين الشُّعوب، كما تنكّرت للجميل الذي قدّمته لها الجزائر أثناء وُقوفها بجانبها خلال الحصار القاري الذي ضَربتهُ الدول والممالِيك الأوربية على فرنسا[2]، وليت الأمر توقف عند هذا الحد فبدلاً من تسديد ما عليها من دُيون لصالح الجزائر راحت تُعد العُدة وتحشُد الجيوش الجرارة لغزوها؛ غَزو ضربت بمُوجبهِ عرض الحائط كل المبادئ النبيلة والشعارات البراقة التي كانت تدافع عنها، وتدعو إليها.

لقد شكّل الغزو الاستعماري الفِرنسي للجزائر، بما وظّفه من أساليب وحشية وبربرية وصْمة عار في جبين الفرنسيين، الذين ليس أمامهُم اليوم بُدا من الاعتراف بما اقترفته دولتهم من جَرائم بَشعة في حق الشَّعب الجزائري، جرائم نظّر لها غُلاة الاستعمار بشكل دَقيق ومُحكم، وهذا ما نلمسهُ من خلال طُرق التغلغل العسكري في الجزائر خلال الفترة الممتدة من سنة 1830-إلى سنة 1870، طُرق مُختلفة ومُتعددة، ولعل أولها المراهنة على عامل القُوة العسكرية التي كانت تمتلكها فرنسا، ولولا هذه القُوة العسكرية الهائلة التي تفُوق كل وصف واعتبار لما تمكّنت من احتلال الجزائر بالصُّورة التي تمت بها، وما يمكن مُلاحظته هُنا هو ازدواجية الخِطاب الفرنسي وتَناقُضه بِصورة عَلنية ومُباشرة، هذا من جهة.

ومن جِهة أُخرى سنقف على كَثير من المواقف المُخزية وغير المُشرّفة للفرنسيين، فالانتصار الذي حقّقهُ الجيش الفرنسي على الجزائر سنة 1830 لم يكن انتصارا عسكريا كما يُشير إلى ذلك القاموس السِّياسي أو الموسوعة العسكرية، بِقدر ما كان انتصار القَوي على الضَّعيف، انتصار التَّقدم على التَّخلف، انتصار التَّنظيم الدَّقيق والمحكم على الفوضى العارمة واللاَّمُبالاة، فكيف لا ينتصر أكبر وأقوى وأكْفأ جيش في أوربا قِوامُه 37.331 جندي[3] على مئات المجندين الإنكشاريين في الجزائر العاصمة؟، وكيف لا تنتصر ما مجموعه 675 سفينة عسكرية وتجارية تحمل المئونة والعتاد للجيش الفرنسي[4] على ما مجموعه 44 قِطعة من السُّفن القديمة التي كان يتشكل منها الأسطول الجزائري سنة 1830؟ حسب رواية يحي بوعزيز[5]، لكن في حقيقة الأمر فوحدات الأسطول لم تكن تتجاوز في الغالب نصف هذا العدد[6].

وحتى الهدف من الحملة الفرنسية كما حَدّدهُ المنشور الذي وُزّع على الجزائريين قبل نُزول القُوات الفرنسية بسيدي فرج[7]؛ والقَاضي بمُعاقبة الدَّاي حُسين وتأديبه كان مُجرد كَذبة سياسية وحِيلة انطلت على الجزائريين، إذْ سُرعان ما تحوّل تأديب الداي إلى احتلال دام 132 سنة، أما بالنِّسبة للشُّروط التي ألزم بها قائد الحملة الفرنسية نفسه "الكونت دوبرمون" أمام الداي في معاهدة 05 جويلية 1830[8]، وأدْمغها بختمه لم يحترمها، حيث سُرعان ما أصدر أوامره للجيش باستباحة مدينة الجزائر، جيش عاثَ فسادًا بِصُورة بشعة لم تُحدّثنا عنها حتى كُتب الحملات الصليبية التي عرفتها منطقة المشرق العربي في ما مضى، وهذا يُعتبر أول مَلمح من ملامح سياسة الجيش الفرنسي التي راهنت عليها فرنسا في بداية غزوها للجزائر.

انطلاقًا من هذه المقدمة التَّاريخية لمقالنا، وقَصد الإجابة عن الأسْئلة المطْروحة في الإشكال السَّالف الذِّكر، رأينا من الضَّرورة بما كان مُعالجة الجرائم التي ارتكبها الجيش الفرنسي أثناء عملية التَّوغُّل العسكري في الجزائر وِفق العناصر التالية:

1-المراهنة على عامل القُوة العسكرية.

---

[1] من بين هذه العوامل تحطم الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية أمام الأسطول الانجليزي، معركة أدرك من خلالها نابليون أن آماله في مصر قد خابت، هذا إلى جانب ظهور عدو قوي جديد وشديد المراس، يكمن في روسيا بعد وفاة كاترين الثانية وتولي القيصر بول العرش، الذي كان شديد النقمة على الشعب الفرنسي، هذا فضلا عن الانتصارات الساحقة التي حققها سوفوروف في نوفي في أغسطس 1799، والتي فقدت بموجبها فرنسا السيطرة على الجمهوريات الايطالية...الخ. يراجع: التاريخ الأوربي الحديث، ص-ص446-447.

[2] حمدان بن عثمان، خوجة: المرآة، ط. 2، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص178.

[3] قدرت طاقة الحملة الفرنسية على الجزائر بما مجموعه: 675 سفينة حربية وتجارية، منها 7 بواخر تحمل على متنها 37.331 عسكري منهم 110 قادة أركان، و4.008 فارس، و2.815 رماة مدفعية و1.345 بالهندسة العسكرية، يراجع: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827-1840، بالإضافة إلى عملية التموين بالمواد الغذائية للجنود وعلف الخيول لمدة 60 يوما، وتموين عسكري قدره حوالي 05 ملايين خرطوشة، و280 ألف طن من البارود.

[4]-NETTEMENT Alfred: histoire de la conquête d'Alger, Jacque le Coffre, Paris, 1856. P-P.238-24

[5]-يحي، بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج. 2، ط. 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص. 212.

[6] خلال هجوم "اللورد اكسموث" البريطاني لم يكن عدد قطع الأسطول يتجاوز 14 قطعة حربية متعددة الأشكال والأحجام، كانت غير قادرة على صد هذا العدوان الغاشم، فما بالك بالحملة الفرنسية التي كانت تفوق حملة "اكسموث" بعشرات المرات.

[7]-عبد الحميد، زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص-ص. 24-28.

[8]-حمدان بن عثمان، خوجة: المصدر السابق، ص-ص. 203-204.

2-المراهنة على عمليات الإبادة الجماعية.

***-المراهنة على عامل القوة العسكرية:** يُمكننا معالجة هذا العنصر الرئيسي من خلال التطرق إلى العديد من العناصر الفرعية التي تعكس بالدرجة الأولى طبيعة هذا الطّرح والتّوجُه العسكري، عناصر يمكن عرضها في ما يلي:

أ-تطور الجيش الفرنسي (العدد، العدة والعتاد): (1830-1870):

راهنت السُلطات الاستعمارية الفرنسية في بداية الأمر على القُوة العسكرية بالدّرجة الأولى، فبعد نجاح الحملة الفرنسية أَعطت السُلطات الفرنسية الحُرية المطلقة لِقادة الجيش الفرنسي في اختيار الآليات والطُّرق التي يرونها مُناسبة للتوغل العسكري في الجزائر، وما يُؤكد طبيعة التّوجه العسكري لهذا التّوغل الفرنسي، أن القيادة وإدارة الحكم في الجزائر كانت بيد العسكريين فقط، فالقادة العامون الذين حكموا في الفترة الممتدة من 1830-1834 كانوا كُلهم عسكريين، والحكّام العامون الذين حكموا في الفترة الممتدة من 1834-1858، كانوا هُم أيضا عَسكريين، وهذا ما يبينه الجدول التالي[1]:

اسم القائد أو الحاكم العام	بداية الحكم	اسم القائد أو الحاكم العام	بداية الحكم
دي بورمون(De Bourmont)	جويلية 1830	داميمون(Damrémont)	فيفري 1837
كلوزال(Clauzel)	سبتمبر 1830	فالي(Valée)	أكتوبر 1837
بارتهزين(Berthezène)	جانفي 1831	بيجو(Bugeaud)	فيفري 1841
دي روفيكو(De Rovigo)	جانفي 1832	دوق دوال(duc d'Aumal)	سبتمبر 1847
فوارول(Voirol)	ماي 1833	كافنياك(Cavaignac)	مارس 1848
دروي درلون(Drouet d'Erlon)	جويلية 1834	شانقارني(Changarnier)	ماي 1848
كلوزال(Clauzel)	جويلية 1835	شارون(Charon)	سبتمبر 1848
دوتبول(d'Hautpoul)	أكتوبر 1850	روندون(Randon)	1851-1858

إنَّ هؤلاء الحكّام والقادة عملوا كل ما في وُسعهم على تعزيز وحدات الجيش الفرنسي، وتثمين قدراته القِتالية، ففي سنة 1830 كان عدد الجيش الفرنسي الذي احتل الجزائر العاصمة يُقدر بـ37.331 جندي، ثم تَدعم في عهد الجِنرال "بوايه" بـ7000جندي، أمّا في عهد الجنرال "فالي" فلقد تدعّم خلال شهر فيفري 1840 بـ19000 جندي[2].

ولعل أكبر قفزة عرفها الجيش الفِرنسي هي أثناء حُكم الجنرال "بيجو"، حيث تمّ تدعيمه بِشكل كبير جدا، فلدى وُصوله إلى الجزائر يوم 22 فيفري 1841 كان تحت تَصرفه 75000 جندي، ارتفع هذا العدد سنة 1842 إلى 83000 جُندي أي بزيادة قدرها 8000 جندي، ثم ارتفع ليصل سنة 1844 إلى 90000 جندي، أي بزيادة قدرها 7000 جندي، وقد بلغ ذروته في سنة 1846 لِيُصبح حوالي 108000 جندي، أيْ بِزيادة قَدرُها 18000 جندي، مَعنى ذلك أنّ عدد الجيش الفرنسي تزايد خلال سِتة سنوات بـ33000 جندي[3].

ومّما ذكره "بيجو" في رسالته إلى الوزير "تيار Thiers" المؤرّخة في 27 جوان 1842 بخصوص المراهنة على الجيش: «إنّ الجيش هو الوسيلة الوحيدة للسَّيطرة على شعب يُخالفنا في الدِّين والعادات، وأنّ الجيش هو العون الوحيد للسيطرة على البلاد، وفتح الطُّرق التجارية، وزيادة وتيرة الاستيطان»[4]، ولعل الجدول الموالي سَيُقدِّم لنا صُورة أكثر وضوحًا عن تطور الجيش الفرنسي في الجزائر[5]:

السنة	عدد الجيش	السنة	عدد الجيش
1830	37000	1842	80000

[1]-احميده، عميراوي: من تاريخ الجزائر الحديث، ط. 2، دار الهدى، عين مليلة، 2004، ص. 83.

[2]- محمد السعيد، قاصري: العلاقات الجزائرية المغربية 1830-1847 (الغرب الجزائري والمغرب الشرقي نموذجا)، د. د. ع. ماجستير، مرقونة، نوقشت يوم 21 مارس 2001، في قسم التاريخ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، تحت إشراف: الدكتور احميده عميراوي، ص. 101.

[3]-يحي، جلال: السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، ط. 1، دار المعرفة، القاهرة، 1959، ص. 145.

[4] محمد، عيساوي، نبيل، شريخي: الجرائم الفرنسية في الجزائر أثناء الحكم العسكري 1830-1871، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 1432هـ/2011م، ص85.

[5]- احميده، عميراوي: من تاريخ الجزائر الحديث، ط. 2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1425هـ/2005م، ص. 87.

1831	9000	1844	90000
1839-1837	50000	1845	106000
1840	70000	1848	78000

يتّضِح لنا من خلال الجدول مدى مُراهنة العدو الفرنسي على عامل القوة العسكرية من حيث العدد ومن حيث النّوعية، حيث وظّف الطّرف الفرنسي كل طاقاته الشّبانية والهرِمة للتّوغل في الجزائر، على أساس الاستفادة من خِبرتِهَا، خُصوصًا القادة الذين شاركوا إلى جانِب "نابليون بونابرت"، في حُروبه التّوسعية بقارة أوربا، أما من حيث العُدة والعَتاد فلقد راهن الجيش الفرنسي في بداية الأمر على سِلاح المشاة، ومَدفعية الميدان التي تجرُّها الخُيول، وعلى فرق الخيالة العسكرية، وعلى الألغام والمتفَجّرات التي دكّتْ بها كثير من الحُصون والقِلاع، وخيرُ مثالٍ على ذلك ما حدث مع مدينة قسنطينة سنة 1837، ومع واحة الزّعاطشة سنة 1849. وهي الأسلحة التي كانت تُثير الهلع والرُّعب في نُفوس المقاومين والسكان، نتيجة وَقْعِها الشّديد وخسائرها الكبيرة.

إنَّ الأمثلة التي سَنسوُقها هنا ستُؤكد لنا بما فيه الكِفاية مدى مُراهنة السُّلطات الفرنسية على عامل القوة من حيث النوعية (قادة مُحنكون ومُمَارسُون لِفنُون الحرب والقِتال)، طبيعة الأسلحة التي لم يعهدها الجزائريون من قبل إطلاقا، بالإضافة إلى المراهنة على عامل الوقت والمكان (عامل الزّمكانية)، لِبث الرُّعب والخوف في صُفوف المقاومة الجزائرية وإجبارها على الاستسلام، وإقناعها بعدم جدوى المقاومة المسلحة، ومن بين هذه الأمثلة:

1-النموذج الأول:

الحملات العسكرية	القوات العسكرية (العدد، العدة والعتاد)
الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة 1836.	المشاة: 6745 بما فيهم عناصر الهندسة والمدفعية والنقل والإدارة، 5300ضابط ورتيب وجندي من الخطوط 59-62-63، الثاني والسابع عشر الخفيفين، الكتيبة الإفريقية الأولى: سلاح الهندسة:17 سرية بقيادة العقيد لومرسييه Le Mercier وعددها 650 عنصرا. المدفعية: بقيادة العقيد داتورنامين De Tourneminee وعدد سدنتها 545 جندي، عناصر النقل والإدارة 250 عنصر يشرفون على قافلة تتكون 1600 بغل وحصان، الفرسان فرسان الكتيبة الإفريقية الثالثة: 560 فارسا، الصباهيون النظاميون 335 جندي، أما القوات الحليفة: كتيبة تركية: 300 مقاتلا، كتيبة رماة من الصباهيين 200 مقاتل[1].
الحملة العسكرية الثانية على قسنطينة 1837	-القيادة العامة: "دامريمون" يساعده الجنرال Perrégeuaux: والدوق دانمور Duc de Nemours، وقد تألفت من المجموعات القتالية التالية: المجموعة الأولى بقيادة الدوق دانمور، المجموعة الثانية بقيادة الجنرال تريزيل، المجموعة الثالثة بقيادة الجنرال روليار Rulhières، والمجموعة الرابعة بقيادة العقيد "كومب Combes. -المدفعية: بقيادة الجنرال "فالي" وبمساعدة الجنرال "كارامان Carman". -الهندسة: بقيادة الجنرال البارون "روهولت دا فلوري Rohault de Fleury". -المشاة: 11200 مقاتل، الفرسان: 1100فارس، المدفعية: 362 مدفعي. -النقل: شارك عدد كبير لمراقبة نقل 850 حصانا و483 بغلا لجر عتاد المدفعية وحمل مؤن الجيش. أما سلاح الهندسة فبقد شارك فيه حوالي 30 عنصرا[2].

-النموذج الثاني:

الحملات العسكرية	القوات العسكرية (العدد، العدة والعتاد)
	-الجنرال "هيربيون" جمع 4493 جندي من قسنطينة، سطيف ، بوسعادة، قسنطينة، خلال شهر سبتمبر

[1]-أديب، حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص-ص. 145-146.
[2]-نفسه، ص-ص. 148-150.

الحملة العسكرية على الزعاطشة 1849.[1]	1849. -12 أكتوبر التحق الكولونيل "بارال" بقوات إضافية قدرها 1515 جندي ليصل عدد القوات الفرنسية المحاصرة للواحة 6040 جندي. -إرسال نجدة أخرى تتكون من 5152 جندي يوم 28 أكتوبر. -يوم 8 نوفمبر تدعم الجيش الفرنسي بـ1210 جندي. -15 نوفمبر وصلت نجدة أخرى بقيادة الكولونيل" لورميل" قوامها: 8075 جندي. -المجموع: 19.267 جندي معززة بمختلف وسائل الأسلحة. مقابل واحة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن 2000نسمة.

ب-المُراهنة على بث الحماس الديني والروح الصّليبية في الجيش الفرنسي:

لا شك أنَّ لِكل جيش عقيدة، بِغض النَّظر عن صِحتها من خطأها، وواقِعهَا من زَيفهَا، فالعقيدة العسكرية تبقى هي الضَّمان الوحيد والدَّافع الرئيسي للجيوش لكي تنتصر في المعارك، وتتجاوز كل العقبات والعراقيل التي تعترض سبيلها، طالما هُناك شيء مُقدّس تدافع عنه، بِغض النَّظر عن طبيعة هذا الشّيء، وبناءً عليه ولضمان نجاح الحملة الفرنسية وظّفت فرنسا الدّين المسيحي كورقة رابحة في هذه المعركة المصيرية.

وبهذا الخصوص تكاد تجمع كل المصادر والمراجع على الطابع الصّليبي للحملة الفرنسية وللاحتلال الذي أعقبها، وهذا ما نَلمسه من خلال تصريحات السّاسة والقادة الذين أشرفوُا على الحملة وساهموا في إنجاحها، ففي خطاب لـ "شاطو بريان" أمام البرلمان الفِرنسي بتاريخ 19 أفريل 1816 ذكّر فيه بِضرورة إحياء الرُّوح الصّليبية: «...لقد رأيت أيها السادة أنقاض قرطاجنة والتنقيب بين تلك الآثار مع الذين خلفوا أولئك المسيحيين المساكين الذين قدم سان لويس حياته فداء تحريرهم... أليس يتعين على الفرنسيين الذين خُلقوا للمجد والأعمال العظيمة أن يكملوا العمل الذي شرع فيه أسلافهم ؟ ففي فرنسا وقعت الدعوة للحرب الصليبية الأولى وفي فرنسا يجب أن ترفع راية الصليبية الأخيرة...»[2].

ويُشاطر هذا الرأي وزير الحربية الفرنسي الذي جاء في إحدى تقاريره: «...إنها حرب صليبية هيأتها العناية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله ليثأر من أعداء الدين والإنسانية (المسلمين)...»[3]، ويضيف مُخاطبا الملك الفرنسي لعل الوقت سيجعل من حظنا نحن الفرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين...الخ، وبِغض النَّظر عن الطَّابع التَّحريضي والدِّعائي لأصحاب القرار في فرنسا، وديماغوجية هذا الخطاب فالجُندي الفرنسي قد تم شَحْنه بهذا الحِقد الصليبي الأعْمى إلى حد النُّخاع، وأنّ هذه الحرب هي خِدمة للرَّب قبل كل شيءٍ، وأن قَتْل وسَفْك دِماء هؤلاء الكفَّار (المسلمين الجزائريين) يعد بمثابة تكفير عن الذُّنوب والخطايا، وهو نفس الشِّعار الذي رفعته مع مطلع القرن 16م الملكة ايزابيلا والملك فرديناند أثناء الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية بعد سقوط مدينة غرناطة سنة 1492م، وحملة التنصير الواسعة التي تعرّض لها المسلمين في الأندلس.

لم تَبْق هذه الحملات الدِّعائية رهينة قاعات المؤتمرات أو الساحات العامة، بل رافق الجيش الفرنسي أثناء وبعد حملته على الجزائر جَيش مِن رجال الدِّين المسيحي، غايتُهم شد أَزْره وتَحْسِيسِه بِقُدُسية أعماله الإجرامية، وفي الحقيقة أن هَؤلاء المرافقين للجيش الفرنسي مَا هُم إلاَّ مُرتزقة لا يَمتُّون بأيِّ صلة لا للدين المسيحي ولا لغيره من الديانات الأخرى، وعليه راح جُنود الاحتلال الفرنسي يتنافسُون ويتسابقُون في القتل والإجرام، بِكيفية لم يَشْهدها التّاريخ الحديث من قبل، ألم يذكر لنا حمدان خوجة في مِرآته كيف تمَّ التَّمثيل بجُثث القتلى ورسم علامة الصَّليب على جِباهِهم؟ ألم يذكر لنا تلك المساجد التي تحوّلت إلى كنائس ومخازن للأسلحة وسكنات للجيش الفرنسي؟، ألم يذكر لنا التّاريخ كيف تم طمْس أسماء الشوارع والمُدن الرئيسية[4]؟ ألم يذكر قِصة هؤلاء الشَّياطين "الآباء البيض" الذين سَاومُونا في عِزِ الأزمة برغيف الخُبز

---

[1]-يحي، بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط. 1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1400هـ/ 1980م، ص-ص 64-66.
[2]- مبارك بن محمد الهلالي، الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج.3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص.283.
[3]- صالح، عوض: معركة الإسلام والصليبية في الجزائر 1830-1962، ج.1، الزيتونة للأعلام والنشر، تونس، 1989، ص.65.
[4] محمد الصالح، الصديق: كيف ننسى وهذه جرائمهم، دار هومة، الجزائر، 2005، ص75.

مُقابل الصليب والتنصير؟ ألم يُصبح التنصير مشروع دولة قائم بذاته في الجزائر المُستعمرة؟[1]، كل هذه المصائب والنكبات كانت تتم في ظل حماية الجيش الفرنسي.

ألم يُصرح لنا الكاردينال "لا فيجري" في تقريره للإدارة الاستعمارية بما نصّه: «علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعني على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير المبادئ التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر»[2]، ألم يُقْدِم الماريشال "فالي" على إقامة القُداس الديني بعد سقوط مدينة قسنطينة في مسجد صالح باي الذي حوَّلهُ مباشرة إلى كنيسة كاثوليكية؟ ألم يُمَجَّد هذا الجنرال من طرف رجال الدين المسيحي والبابوية جراء أعماله في خدمة المسيحية، وهذا ما نلْمسهُ من خلال ما كتبه الأب "سوشيSuchet" في إحدى رسائله، والتي وصفه فيها بالرَّجل الصّالح؟: «إن السّيد فالي هو الرجل الصالح للمستعمرة، ويريد تثبيت دعائم الدين وفرض احترامه في كل مكان، ويريد أيضا مضاعفة الصلبان والمعابد في الجزائر»[3].

ج-توظيف عُقدة التّفوُّق على الآخر:

يَبدو لنا ذلك من خلال تَشويهِ صُورة العربي –الجزائري المسلم في ذِهنية الجيش الفرنسي، فلقد كان الشِّعار الذي يُرافقهم دوما، هو أنَّ العربي-في نظرهم طبعا-ما هو إلا حيوان مخلوق وهو ممتلئ بالتّعصب الإسلامي ولا يمكن وقفه عند حدّه إلا بالقوة[4]، ومما جاء به "جان بول سارتر" حول عُقدة التَّفوق هاته: «ترى؟ إنْ برز المسلم بدوره كرجل متساو، تساوي الند للند مع المعمر، ترى حينذاك هذا المعمر يشعر بضعف يصيب شخصه، وبنقص ينتاب كرامته وبانخفاض يعتري قيمته-فإنه لا يخشى ارتقاء (البونيول)[5] إلى العالم البشري والتوابع الاقتصادية الناجمة عن هذا الارتقاء فحسب، بل يكره ذلك الارتقاء لأنه ينذره بانهياره الشخصي- فيؤدي به جنونه إلى أن يحلم في إبادة ذلك الشعب»[6].

وتبدو هذه الفِكرة أكْثر وُضوحًا عند "انجلز" الذي وصف المجتمعات الجزائرية والصَّحراوية (التي تسكن الصحراء الجزائرية) بقوله: «وإذا كنا نأسف على أن بدو الصّحراء قد فقدوا حريتهم، فإنه يجب أن لا ننسى أن هؤلاء البدو كانوا أمة من اللصوص، ذلك أن وسائل عيشتهم كانت في شن غارات إمّا على بعضهم بعض وإما على القرى الآهلة المجاورة»[7]. ويذكر فرحات عباس في خِضم حَديثهِ عن مُطالبة بعض الجزائريين فِرنسا بفتح المدارس لِتعليم أبناء الشَّعب الجزائري، فكان جواب الفرنسيين لهم: «أنتم لستم أهلا لها لأنكم قوم لا تقبلون لا التربية ولا التعليم»[8]، وهذا الطّرح السّخيف والعُنصري يُفنِّدُه تقرير الرحالة الألماني "فيلهلم شيمبر" خلال زيارته للجزائر ما بين 1831-1832 عن الحالة الثقافية التي كانت تعيشها الجزائر: «لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب، ومن الإنصاف أن نقول إن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة...أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلا في النادر جدا»[9].

وإذا كانت هذه هي صُورة الجزائري في ذِهنية الجُندي الفرنسي كما قدَّمتها له دوائر الفِكر الاستعماري، فماذا يمكننا أن ننتظر مِنه سوى الاستعباد والاستغلال أو الطَّرد والنفي والقتل والتشريد للجزائريين، وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل السُّلطات الفرنسية نفسها لم تعترف إطْلاقًا بالشعب الجزائري الذي يَسكن هذه الأرض، فتارةً تصِفُه بالأهلي الحقير، وتارة تصفه بالبربري المتوحّش، ولقد ظلت هذه الفكرة سارية المفعول ردحًا من الزمن في المخيلة العسكرية الفرنسية إلى غاية اعتراف الجنرال "دوغول" بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير، من خلال التصريح الذي أدلى به بعد مظاهرات 11 ديسمبر 1960: غدا سيتم الحديث عن جزائر جزائرية للجزائريين.

[1]-يراجع بهذا الخصوص ما جاء في أطروحة الباحثة خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، منشورات دحلب، الجزائر،2007.
[2] محمد الصالح، الصديق: المرجع السابق، ص73.
[3] عيساوي، محمد، نبيل شريخي: المرجع ا لسابق، ص82.
[4]-عمار، بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط. 3، دار البصائر، الجزائر، 2008، ص. 104.
[5]-كلمة ازدراء يستعملها الاستعماريون لتعيير عرب شمال إفريقيا وهناك ألفاظ ازدراء أخرى منها: بيكو، راطون، انديجين.
[6]-فرحات، عباس: ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص. 19.
[7] عميرواي، احميده وآخرون: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، دار الهدى، 2009، ص29.
[8]-فرحات عباس: المصدر السابق، ص. 30.
[9] أبو العيد، دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص13.

د-توظيف الإغراءات المادية:

قد لا نكون مُبالغين إذا قُلنا: إنَّ الحملة الفرنسية على الجزائر ما هي إلا صُورة مُصغَّرة للحملات الصليبية التي استهدفت الشرق الإسلامي زمن الحُروب الصليبية، حملات حرّكت مشاعر العامة من الناس وحتى العبيد للتحرر من نير العُبُودية مقابل المشاركة في هذه الحملات التي وَصفتْ الشَّرق الإسلامي بأنّه جَنة الله فوق الأرض، وبالغت في وصف كُنُوزِهِ وقُصوره وحَريمه إلى درجة لا يصدِّقها العقل، وعليه يكون السّاسة والقادة بفرنسا الذين خططوا لغزو الجزائر لم يغفلوا عن هذا الجانب الاغرائي، فراحوا يصفون الجزائر بالبلد الثري ببضائع القرصنة وتحف الشرق وذهب افريقية وعبيدها[1]، وبالخزان الذي لا ينضب، وأنها تحتوي على كُنوز طائلة وأموال باهظة، ناهيك عن القُصور والحريم والجواري وغيرها من المحفزات، وهو ما أسال لُعاب الطَّامعين فساروا في ركاب هذه الحملة، أملاً في الحُصول على هذه الغنائم والكنوز[2].

وبخُصوص عمليات التّخريب والنهب والسلب التي قام بها الجيش الفرنسي أثناء اقتحامه العاصمة الجزائرية، بحثا عن هذه الكنوز والأموال، يذكر لنا حمدان بن عثمان خوجة بما فيه الكِفاية مظاهر الطّمع وجشع الغزاة الذين خربوا الفيلات (الأحواش) وقطعوا أشجار الحدائق، وخلعوا أعمدة المنازل لإيقاد النار، وثقبوا أنابيب المياه لملء أوانيهم وهدَّموا سواقي المياه[3]، ومقابل ذلك كان قادة الحملة الفرنسية يملئون جرابهم من الأموال التي عثروا عليها في خزينة الدولة الجزائرية، خزينة مثّلت غنيمة حرب باهضة الثمن[4].

وفي مَعْرض حدِيثِه عن حجم خزينة القَصبة يُشير الرّحالة الألماني"شونبيرغ" إلى أن أمير البحر ديبري والقائد العام قد نزلا يوم 07 جويلية إلى القبو لمشاهدة كومة الذهب والفضة، التي كان علوها يبلغ ركبة إنسان، وتحتل مساحة عشرين ذراعا[5]، في الوقت الذي قام فيه الضُّباط والجنود للقيام بعملية بحث مُضنية عن الكنوز والذهب والفضة، فهذا قصر الباشا مثلا في القصبة انتزعوا بلاطه وقشّروا جدران غرفه، وخربوا سقفه، بحثا عن المال المخبأ والكنوز التي سمعوا بها أو قرأوا عنها في كتب ألف ليلة وليلة[6].

لم تكن العاصمة الجزائرية وحدها ضَحية هذا السّلب والنهب والسَّرقة المقننة، فهذه قسنطينة أيضا عرفت نفس مصير العاصمة، وهذا ما تُؤكدُه رواية الدكتور "سيديليو Dr Sédillot" التي جاء فيها: «بمجرد السيطرة على أحد المنازل، يغلقون الباب بإحكام، ويتسللون على وسط المنزل، ثم يفتحون الخزانات بقوة، ويكسرون المرايا ولا يتركون شيئا، ثم يحملون بعد ذلك، وبهدوء، وشيئا فشيئا كل ما يجدونه أمامهم»، هذا إلى جانب رواية زميله "موريتس فاغنر Vigner" التي جاء فيها: «إن المدينة قد نهبت لمدة ثلاثة أيام متتالية، وعرضت للبيع غنائم مختلف، من زرابي، وبرانس، وأسلحة، ومواد غذائية، وكتب عربية وغيرها[7]. ولم تسلم هذه العملية حتى من كبار القادة والضباط الفرنسيين، الذين اعترف بعملهم الخسيس "سانت أرنو Saint Arneaud نفسه بقوله: «إن النهب الذي بدأ فيه الجنود، امتد إلى الضباط، بحيث كانت أوفر الغنائم وأنفسها، من أسهم قائد الجيش وضباط أركان الحرب، كما هي العادة»[8].

1- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ج. 1. القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص. 22.

2- تذكر بعض المصادر مثلا حول خزينة الدولة الجزائرية أنها كانت تحتوي على ما لا يقل عن 50 مليون دولار سنة 1830، وأن الداي علي باشا الذي كان قد نقل مقر الحكم من قصر الجنينة إلى أعالي القصبة استعمل لنقل محفوظات الخزينة خمسين بغلا كل ليلة لمدة خمسة عشر يوما. يراجع: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ج. 1. ص. 21. والطرف الفرنسي يفتخر بأنه لم يقوم بأي حملة سابقة في أي مكان مثل حملة الجزائر إذ أن الحملات الأخرى كانت تكلفهم ولو نجحوا فيها أموالا طائلة وخسائر مالية معتبرة، بينما حملة الجزائر قد فاضت على تعويض التكاليف، يراجع: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص21.

3- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ج. 1. المرجع السابق، ص. 23.

4-قدّر الفرنسيون قيمة الخزينة بـ" 55.684.527 فرنك موزعة على النحو التالي:

-ذهب وفضة وجواهر: 48.684.527فرنك.

-صوف وبضائع أخرى: 3.000.000 فرنك.

-قيمة مدافع أرسلت إلى فرنسا: 4.000.000 فرنك. أما الحسابات التي أجراها الخاصة-غير الرسمية-للخزينة فقد أثبت أن قيمتها: 400.000.000 فرنك. يراجع: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ج. 1. ص. 22.

5 أبو العيد، دودو: المرجع السابق، نفسه، ص36.

6- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ج. 1. المرجع السابق، ص. 23.

7 أبو العيد، دودو: المرجع السابق، ص88.

8 محمد، عيساوي، نبيل شريخي: المرجع السابق، ص67.

وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل قام جنود الاحتلال الفرنسي بقطع آذان وأصابع ومعاصم النسوة اللائي كن يرتدين الحلي والخواتم والخلاخل في مدينة الجزائر، وجمعوها في قفف، ثم عرضوها للبيع في المزاد العلني بلحمها ودمها، بل هناك من بعث بهذه الأعضاء البشرية بحليها كهدية إلى أهله من باب الافتخار وإظهارا لنشوة الانتصار الذي حققوه على الكفار المسلمين في نظرهم؟، وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل امتدت أيديهم القذرة وعيونهم التي يتطاير منها الشرر إلى قبور الموتى فنبشوها، بحثا عن الكنوز التي اعتقدوا أنها مدفونة بداخلها.

أحدثت عملية نبش مقابر الموتى لاستخراج عظامهم وتهريبها إلى فرنسا، هواية المالطيين الذين عرضوا خدماتهم على أصحاب القرار من التجار والبورجوازيين والصناع في غرفة مارسيليا للصناعة والتجارة، التي كانت في أمس الحاجة إلى فحم العظام لتبييض مادة السكر، ونظرا لنقص الحمولة كان يلجأ دائما هؤلاء اللصوص والمرتزقة إلى نبش المقابر لاستخراج العظام، ومع مرور الوقت تحولت هذه العملية إلى فضيحة كشف عنها النقاب الطبيب "سيقو Dr Segeaud"، وبعث من خلالها برسالة إلى جريدة "لوسيمافور Sémaphored Marsseille" في تاريخ 01 مارس 1833، يفضح من خلالها هذه العملية: «لقد علمت عن طريق الإشاعات أن عظاما بشرية أستخدمت لصنع الفحم الحيواني Charbon animal، ومدفوعا بشعور العطف على الإنسانية...قمت بزيارة الباخرة المدفعية "الابون جوزين la bonne Josephine"...والقادمة من الجزائر، حيث كانت حمولتها من العظام، وبعد أن قمت بفحص دقيق جدا...تعرفت على بعض منها، ثبت لدي أنها من النوع البشري، وشاهدت عددا من الجماجم والسواعد وعظام الفخذ، التابعة للمراهقين الذين دفنوا مؤخرا، وكانت غير خالية من اللحم»[1].

وفي معرض اتهامه لـ: "الدوق دو رفيقو" يذكر الرحالة الألماني "فاغنر": «إن دناءة الفرنسيين تجلت بوضوح في فتح القبور والأضرحة الجميلة بحثا عن الأموال ونقل حجارتها إلى أمكنة أخرى، وأفضع من هذا أن الفرنسيين أخذوا عظام الموتى وحملوها بالسفن إلى فرنسا لبيعها لمعامل مسحوق العظام، ومسؤولية هذه الأعمال البغيضة تقع على عاتق روفيقو، فقد دفعه حقده على المسلمين إلى جرح مشاعرهم الدينية، حتى انه استعمل لهذا الغرض عددا من الجزائريين من قبائل وبسكريين وأرغمهم على فتح القبور وتحطيم إخوانهم في الدين، وفيهم الأب والأخ والقريب، وبما أن عمليات الإعدام كانت تتم يوميا تقريبا، فإن الخوف كان قد تمكن منهم وشل أيديهم وألسنتهم، فلم يجدوا الجرأة على الاحتجاج على هدم قبور أوليائهم وذويهم، وهكذا شهدوا هذه المناظر برؤوس مطرقة ووجوه عابسة»[2].

ورغم محاولة السلطات الفرنسية القيام بما يمكن القيام به لحفظ ماء الوجه في الظاهر، فإن الجريمة لم تتوقف وعملية شحن العظام ظلت مستمرة، وما يمكن الاستدلال به على دور الجيش في هذه الجريمة هو من خلال مشاركة بعض السفن الحربية الفرنسية رسميا في نقل هذه العظام البشرية نحو مارسيليا[3].

لم تبق هذه الفضيحة حبيسة الأوساط الفرنسية بل انتقل صداها إلى القناصل الأوربيين العاملين بالجزائر، فهذا القنصل البريطاني "سان جون Saint Jean" أكد في رسالته المؤرخة في 23 جويلية 1833 إلى "جولي دي بوسي J-De Bussy " على هذه الجريمة، ومما جاء فيها: «إن مقابر الأموات قد انتهكت، وبقاياهم الآن قد نقلت إلى فرنسا كبضاعة للتجارة»[4]، وتصريح "لويس بلان L.Blan" الذي جاء فيه أيضا: «إن العظام البشرية كانت ترسل من الجزائر إلى فرنسا بالقناطير، لكي تستخدم في بعض الصناعات»[5].

وإذا سلّمنا هكذا تجوُّزًا بأن الضربة الأولى التي تعرضت لها الجزائر من طرف الجيش الفرنسي بهذه الوحشية والبربرية، لها ما يبررها نظرا لعامل التعبئة والحماس الديني الذي قامت به الكنيسة لصالح جنود الاحتلال، فإن الحملات العسكرية التي رافقت عمليات التوغل العسكري الفرنسي خارج مدينة الجزائر ليس لها ما يبررها، لكن للأسف الشديد فكل الحملات الفرنسية التي استهدفت مثلا:

[1] نفسه، ص49.
[2] أبو العيد، دودو: المرجع السابق، ص84-85.
[3] عيساوي، محمد، نبيل شريخي: المرجع السابق، ص49.
[4] نفسه، ص52
[5] نفسه، ص52.

وهران، البليدة[1]، بجاية، سكيكدة، قسنطينة، الزعاطشة...الخ، عرفت نفس العمليات الإجرامية والوحشية التي كانت عليها حملة الجزائر العاصمة، وفي بعض الأحيان كانت أشد وقعا وضررا وفتكا بالسكان، مما يعني لدينا أن جيش الاحتلال واحد، وتركيبته البشرية العنصرية وحالته النفسية الإجرامية لم تتغير، فوراء كل حملة عسكرية شياطين المسيحية الذين يُشجعُون الجنود على المزيد من القتل وسفك الدماء دون شفقة ولا رحمة.

ومع مرور الوقت بات جشع هذا الجيش وإجرامه مُقنن ومُبارك من طرف قادته العسكريين وساسة فرنسا الرسميين كالملك "لويس فيليب" الذي قال بالحرف الواحد حول الإبادة الجماعية للشعب الجزائري سنة 1835: «لا يهمنا أن تطلق مائة ألف رصاصة في إفريقيا إذ **لا تسمع أوربا صدى** تلك الطلقات»[2].

ومن بين ما يمكن أن نستشهد به حول هذه النقطة الإجرامية ما قام به الجيش الفرنسي، عندما دخل مدينة معسكر سنة 1835، ووجدها خاوية على عروشها، ولم يجد ما يشفي به غليله من الانتقام، أطلق الجنرال "كلوزيل" العنان لألسنة اللهب لكي تحرق المدينة عن آخرها، حتى القطط والكلاب الضالة لم تسلم من هذه العملية البشعة، ونفس المصير عرفته مدينة قسنطينة سنة 1837، حسب ما جاء على لسان "سانت أرنو" الذي وصفه "فيكتور هيغو" بابن آوى: «إن النهب الذي كان في أول الأمر يقوم به الجنود وحدهم ، أصبح فيما بعد عمل الضباط، لما خرجنا من قسنطينة استولى قواد الجيش وضباط أركان الحرب على النصيب الأوفر من الغنيمة والفيء[3]، أما الجنرال "بيجو" كبير المجرمين والسفاحين فيقول في تصريح له سنة 1844 بخصوص الحرق والهدم والغنم: «إننا خربنا ونهبنا أكثر من خمسين قرية غناءة مبنية بالحجر الصم ولها سطوح من القرميد، واكتسب جنودنا غنائم لا تحصى»[4].

لم يستثن الجيش الفرنسي في هذه الحملات العسكرية الشيوخ والنساء والأطفال والعجزة والمرضى، فالكل لا قوا نفس المصير ونفس القصاص، فسكان مدينة قسنطينة قد رموا بأنفسهم من على منحدرات واد الرمال خوفا من الأسر أو القتل وانتهاك الحرمات حسب رواية "فاغنر": «إن المدينة قد نهبت لمدة ثلاثة أيام متتالية، وعرضت للبيع غنائم مختلفة من زرابي وبرانس وأسلحة ومواد غذائية وكتب عربية وغيرها[5]...بعد أن هرب الكثير من المواطنين إلى وادى الرمل، نزلوا إليه بحبال ربطوها بالصخور، ولكن الحبال تقطعت بهم من كثرة من تعلق بها منهم، فوصلوا إلى أعماقه موتى أو بأعضاء مكسرة، وانتهي هناك ما يزيد عن خمسمائة شخص، كانت طلقات البنادق تلاحقهم أينما اتجهوا في هلعهم ذلك، فبقيت جثثهم نصف معلقة فوق نوائئ الصخور»[6]، ثم ينتقل إلى الحديث عن وصف الحفلة الراقصة والماجنة التي أقامها الجنود الفرنسيون في قصر الباي على أشلاء الموتى، ومشهد الأسود المقيدة وحارسها الألماني فندلين شلوصر[7].

أما بخصوص واحة الزعاطشة فبعد اقتحامها من طرف الجيش الفرنسي سنة 1849، تم بقر بطون النساء الحوامل، والعبث بالأجنة وتمزيقها إربا إربا، أما الرؤوس الكبار رؤوس القادة بوزيان وابنه وموسى الدرقاوي فتم فصلها عن جسدها ونقلها إلى فرنسا لتحفظ في متحف "اللوفر Musée du Louvre"، وهي لا تزال كذلك تنتظر من يعيدها إلى أرض الوطن ويجد لها فيه قبرا أو مكانا تدفن فيه، ولم تكن هذه هي الرؤوس الأولى والأخيرة التي تُقطع بهذه الصورة البشعة، أما بخصوص عموم السكان فقد تعرضوا لمذبحة جماعية من خلال تسوية مباني الواحة وغابات نخيلها بالأرض، فكانت النتيجة قتل ما مجموعه 1000 نسمة.

وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل ازدادت وحشية الجيش الفرنسي ضراوة، وازداد قُواده وضُباطه جنونا كلما توغلوا في الجزائر، وواجهتهم مقاومة هنا أو هناك، حيث كان يعرف السكان نفس المصير،الإبادة، القتل، النفي، التهجير، مصير لم يُبْقِ من خلاله الجيش الفرنسي إلا على نسبة قليلة من عدد السكان تتراوح ما بين 2.5 إلى 3 ملايين نسمة في موفى سبعينيات القرن 19، بعدما كان يبلغ عددهم

---

[1] صرح الجنرال "كلوزيل" خلال شهر نوفمبر، حيث كان موجودا بالبليدة في شهر نوفمبر 1830، بعدما اوامره للقتل الجماعي: إني أمرت حتودي بالتخريب وحرق كل من يعترض طريقهم، وعن حقيقة الحرب هي ليست من اجل زيادة النوع البشري، يراجع: الجرائم الفرنسية في الجزائر أثناء الحكم العسكري 1830-1871، ص44.

[2] -فرحات، عباس: ليل الاستعمار، ص. 75.

[3] -نفسه، ص. 79.

[4] -نفسه، ص. 61.

[5] أبو العيد، دودو: المصدر السابق، ص88.

[6] نفسه، ص89

[7] نفسه، ص89.

عشية الاحتلال حوالي 10 ملايين نسمة؟. ورغم ذلك لم يرتو الجيش الفرنسي من شلال الدماء الجزائرية التي سالت طيلة هذه الفترة، وكأنه ينحدر من أصول دراكولية لا تستطيع العيش إلا على امتصاص دماء البشر.

رغم العدد الهائل للجيش الفرنسي العامل في الجزائر، والذي ما فتأ يزداد من سنة إلى أخرى، تكون السلطات الفرنسية قد راهنت على طرق وآليات أخرى للتغلغل العسكري، ألا وهي آلية تمين وتعزيز هذا الجيش بسواعد جزائرية وعربية وسواعد أجنبية من دول افريقية وحتى آسيوية، وتشكيل عدة فرق عسكرية جديدة أشد شراسة وضراوة من الجيش الفرنسي نفسه، ومن أهم الفرق العسكرية التي أنشأتها لهذا الغرض[1]:

أ- المرتزقة الأجانب " La légion Etrangères": أسسه الملك لويس فيليب في تاريخ 10 مارس 1831، وهو يتكون من حوالي سبعة فيالق عسكرية ومن جنسيات أوربية مختلفة: ألمانية، ايطالية، اسبانية، بلجيكية، بولونية.

ب-الزفير "": تم تشكيله من فيالق المشاة الفرنسية، بدأ نشاطه العسكري سنة 1832، لعب دور كبير في مواجهة المقاومة في الغرب الجزائري.

ج-جيش زواوة "Zouaves": بناء على إمداد قبيلة زواوة لنظام الحكم العثماني بالجيش من أبناءها يكون القادة الفرنسيون قد تفطنوا إلى هذه المسألة وعملوا على تثمينها وتفعيلها بمختلف الطرق والوسائل، ولقد أثمرت هذه العملية بتجنيد حوالي 500 محارب من زواوة بقيادة "ديفيفيي Duvivier"، وفعلا تم اعتماد هذه القوة وتنظيمها فقسمت إلى فيلقين بجانب فرقة من الخيالة.

د- قناصة إفريقيا" les chasseurs d'Afrique": جاءت فكرة تأسيس هذا الجيش انطلاقا من الفرقة الخاصة المكونة من الخيالة التابعة لجيش زواوة، وابتداء من يوم 17 نوفمبر 1838 تم تنظيم هذا الجيش وتطويره إلى أن صار جيشا مشكلا من الفرنسيين والجزائريين، لكن مع مطلع سنة 1844 اقتصر تشكيل هذا الجيش على الفرنسيين فقط.

ه-الصبايحية "": تأسس من الفرسان العرب سنة 1841 من جنسيات مختلفة فرنسية وجزائرية ومغربية وتونسية تحت قيادة ضباط من الفرنسيين والأهالي الجزائريين سمي بجيش الصبايحة.

2-المراهنة على الإبادة العرقية:

يذكر الطاهر عمري بخصوص هذه الفكرة: «إن "أرموند فكتور هان A,V, Hain" أول من وضع نظرية الإبادة العرقية في الجزائر، حيث وجه سنة 1832 "نداء إلى الأمة بالجزائر" يقول فيه باستحالة إدماج السكان الأصليين، وأفتى بشرعية طردهم إلى الصحراء أو إبادتهم في حالة المقاومة مثل الوحوش المفترسة، ينبغي أن يتراجعوا أمام زحف مؤسساتنا، وأن يشردوا في رمال الصحراء»[2].

وتثمينا لهذا الطرح الإستئصالي صرح السياسي الفرنسي "بول بير" في معرض حديثه عن الاستعمار الفرنسي الاستيطاني في الجزائر: «إنه عندما يضع شعب ما، قدمه في أرض غير أرضه لأسباب ما، فإنه لا توجد لديه إلا ثلاثة حلول: إما إبادة الشعب المهزوم، أو استخدامه في عبودية مضنية، أو إشراكه في مصيره»[3]، وعليه تم تأسيس مرسوم المسؤولية الجماعية للعشائر في 31 مارس 1845، وإصدار أمرية 31 أكتوبر 1845[4]، التي تصب في سياق إبادة الشعب الجزائري خاصة أولئك الذين يوجهون بنادقهم ضد الفرنسيين، ورغم مرور أكثر من 40 سنة على الاحتلال لم تتوقف دعوة العسكريين للمراهنة دوما على تفعيل عملية إبادة الأهالي، ومما يذكره كمال كاتب بهذا الشأن: «إن إرادة الإبادة ظلت تتنامى في الأوساط القيادية للاحتلال حين شعرت ببلوغ هدفها نتيجة حيوية ديموغرافية غير منتظرة عند السكان الأهالي، والتي ظهرت بعد تمرد 1871 كما بينتها إحصائيات 1876»[5]، بمعنى السعي نحو تغليب العنصر الأوربي الفرنسي على العنصر الأهلي بأي طريقة كانت.

---

[1]- احميده، عميراوي: من تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص-ص84-85. .

[222] الطاهر، عمري: ((الاستعمار الاستيطاني الفرنسي وتأثيراته على البنى الاجتماعية الجزائرية إلى نهاية القرن التاسع عشر))، الندوة العلمية الأولى في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ماي 2008، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008، ص143.

[3] علي، تابليت: مصادرة أملاك أهل الزعاطشة وأولاد ضاعن بنواحي قالمة 1852-1853، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاتصال والثقافة، السنة 22، العدد 115، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1997، ص29.

[4]كمال، كاتب: أوربيون أهالي ويهود بالجزائر 1830-1962 تمثيل وحقائق السكان، ترجمة رمضان زبدي، تقديم بن يمين ستورا، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص29.

[5]كمال، كاتب: المرجع السابق، ص29.

ولا نعجب إذا كانت هذه الفكرة الإجتثاثية والإبادية دافع عنها وتبناها الدكتور "بوديشون" في كتابه خواطر عن الجزائر 1945: «لا يهم فرنسا أن تخرق في سياستها الاستعمارية المقاييس الأخلاقية وقيمها، ولكن الذي يهمنا قبل كل شيء هو تأسيس مستعمرة نملكها بصفة نهائية وننشر على الشواطئ البربرية المدنية الأوربية، ومن البديهي أن أقصر الطرق لبلوغ غايتنا هو نشر الرعب، ففي استطاعتنا أن نحارب أعداءنا الإفريقيين بالحديد والنار وأن نضرم نار الفتنة بين قبائل التل والصحراء أو نبلو السكان باستهلاك الكحول ونشر الفساد وبث عقارب النزاع والفوضى بينهم»[1].

وفي معرض حديثه عن الاتجاهات الفكرية والسياسية التي ميزت السياسة الاستعمارية يذكر احميده عميرواي اتجاه سياسة الإخضاع " la domination"، ويعتبر هذا الاتجاه هو الغالب على السياسة الفرنسية في الجزائر وخصوصا المنطقة الصحراوية[2]، وما يمكن أن نستشهد به في هذا العنصر، هو جملة من مظاهر وملامح الإبادة العرقية للشعب الجزائري التي يمكن تناولها في العناصر التالية:

-مذبحة قبيلة العوفية[3]:

ارتكب هذه المذبحة الجنرال "دو رفيقو"، ومما جاء في وصف المصادر والمراجع لوقائعها: «هجمت سارية في الصباح الباكر على قبيلة الأوفياء وفاجأتهم وهم نائمون في خيامهم وذبحتهم دون أن يفكر أحد في الذود عن نفسه، كل من كان حيا كان مصيره الموت دون ما تمييز بين الصغير والكبير، والذكر والأنثى؛ وبعد العودة من تلك الملحمة الفظيعة كان فرساننا حاملين رؤوسا في أعالي رماحهم»[4].

ومما ذكره "بيليسي دي رينو Pellissier de Reynoud" عن إبادة هذه القبيلة: جميع الأحياء كان مصيرهم الموت، لم يراع أي تمييز في السّن والجنس، أما "هيرسيون Hersson " فقد نقل لنا بشأن هذه المذبحة ما يلي: لقد كان هناك في زاوية من الخيمة عدد كثير من الأكياس المملوءة بالرؤوس المقطوعة، ثم يواصل: وبعد نهاية هذه المهمة، عاد الجنود إلى المعسكر ومعهم برميل بالأذان...ولقد كانت قيمة الزوج من أذان الأهالي عشرة فرنكات[5].

لم تبق رؤوس ضحايا قبيلة العوفية بعين المكان، بل تبادلها الضباط كهدايا رمزية تستحق الاعتبار ولفت الانتباه، فاللقيط "يوسف"بعنابة وصلته كثير من الأشياء المسلوبة من قبيلة العوفية، كما تم نقل جزء كبير منها للبيع في باب عزون حسب رواية حمدان خوجة: «ومن جملة ما رأينا أساور ما تزال مشدودة إلى زنود مقطوعة وقرطا دامية»[6].

وبخصوص شيخ القبيلة فرحات الذوادي[7] التي اتهمته السلطات الاستعمارية بهتانا وزورا، بشأن تحريك عشيرته للثورة ضد الفرنسيين، فلقد تمت محاكمته محاكمة صورية، أعدم من خلالها ثم قطعت رأسه وحملت هدية إلى الدوق "دو رفيقو" الذي قام بدوره بالتبرع برأس هذا الشيخ الهرم ورأس أحد أفراد قبيلته إلى الطبيب "بونافون" لإجراء تجربة علمية عليها[8]، ولقد اتضح فيما بعد للفرنسيين أن هذه القبيلة كانت بريئة من التهمة التي نسبت إليها[9].

أما تصريحات وتقارير الضباط والجنود الفرنسيين حول كثير من المجازر البشعة التي ارتكبوها في حق السكان، فهي كثيرة جدا وكفيلة بتقديم صورة حية عن الحضارة الفرنسية التي يدعون بنشرها في الجزائر؛ ومن بين هذه التقارير نذكر[10]:

-تصريح القبطان "دي ومبفن De Wempfen" في أحد مراسلاته العسكرية: «قضينا أربعَ وستين يوما كنا نجوب خلالها نواحي الأصنام واستطعنا أن ندمر وأن نخضع جميع القبائل الثائرة، ولكن بدا لي مما رأيت أنها لا تطيع أوامرنا إلا بالقوة...إذ ما كانت طوابيرنا تبتعد عن

---

[1] -فرحات، عباس: ليل الاستعمار، المصدر السابق، ص-ص. 72-73.

[2] احميده، عميرواي وآخرون: المرجع السابق، ص29.

3 -يراجع بشأنها: سعد الله، أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية، ج. 1، القسم الأول، ص. 192.

4 - مصلحة الدراسات في المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954: "من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر"، **المصادر**، ع، 5، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية الثورة التحريرية، صيف 1422هـ/ 2001م، ص. 205.

[5] محمد عيساوي، نبيل شريخي: المرجع السابق، ص-ص46-47.

[6] حمدان، بن عثمان، خوجة: المصدر السابق، ص81.

[7] نفسه، ص80.

.8 -مصلحة الدراسات في المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954: المرجع السابق، ص. 205.

9 - أبو العيد، دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص. 19.

[10] -يراجع بخصوص هذه التصريحات ما جاء في كتاب ليل الاستعمار، ص-ص. 77-87.

ميدان المعركة بعد أن أتلفت الحصاد وقطعت الآلاف من الأشجار وأحرقت الدواوير وفتكت بالعرب، ما كادت...ومررت ثانية بالدواوير التي أحرقناها فما وجدت فيها أية محاولة تبذل لبناء ما هدمناه»[1].

-تقرير الكولونيل"فوري Forey": «لم أرى (كذا) في حياتي ولم يخطر ببالي أن أرى ما رأيته من تجمعات سكانية في جبال بني بوعيش وبني بومالك...إذ أننا دمرنا تدميرا كاملا جميع القرى والأشجار والحقول، والخسائر التي ألحقها طابورنا بأولئك السكان لا تُقدّر؛ وإذا تساءل البعض: هل كان عملنا خيرا أو شرا؟ فإني أجيبهم بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع السكان وحملهم على الرحيل»[2].

-اعتراف الرائد "مونتنياك" المؤرخ في سنة 1843 بجريمة قطع رؤوس العرب لاعتقاده أن العرب بدءا من خمسة عشر سنة يجب أن يقتلوا، وباعتبار آخر[3]: يجب أن نبيد كل من يرفض الزحف كالكلاب عند أرجلنا، وفي هذا الصدد كتب لأحد أصدقائه: تطلب مني ماذا كنا نفعل بالنساء؟ كنا نحتفظ ببعضهن كرهائن، بينما كنا نقايض أخريات بأحصنة وبيع ما تبقى منهن في المزاد العلني كقطيع غنم، ويقول في موضع آخر: هذه هي طريقتنا في الحرب ضد العرب يا صديقي...قتل الرجال وأخذ النساء والأطفال ووضعهم في بواخر ونفيهم إلى جزر الماركيز البولينيزية باختصار: القضاء على كل من يرفض الركوع تحت أقدامنا كالكلاب. ثم يواصل حديثه في نفس الشأن قائلا: لقد أحصينا القتلى من النساء والأطفال فوجدناهم ألفين وثلاثمائة، أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب بسيط هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة.

-اعتراف الجنرال "كافينياك" المؤرخ في سنة 1844 حول إبادته قبيلة بني صبيح: «لقد تولى الأجناد جمع كميات هائلة من أنواع الحطب ثم كدّسوها عند مدخل المغارة التي حملنا قبيلة بني صبيح على اللجوء إليها بكل ما تملك من متاع وحيوانات، وفي المساء أضرمت النيران وأخذت الاحتياطات كي لا يتمكن أيا كان من الخروج حيا»[4]. أما الناجون من فرن "كافينياك" الذين كانوا خارج القبيلة فقد تولى العقيد "كانروبار Conrobert" جمعهم بعد حوالي عام من حرق أهاليهم، ثم قادهم مقيدين إلى مغارة ثانية وأمر ببناء جميع مخارجها ليجعل منها على حد تعبيره مقبرة واسعة لإيواء جثث أولئك المترمتين، ويقول بخصوص هذه المغارة: «لم ينزل أحد غيري إلى تلك المغارة ولا يعرف أحد غيري أنها تضم تحت ركامها خمسمائة من الأشرار الذين لم يقوموا بعد ذلك بذبح الفرنسيين»[5]. وفي تعليقه على هذه الجريمة البشعة قال السيد "برار Bérard": «لقد ظلت تلك المقبرة مغلقة وبداخلها جثث رجال ونساء وأطفال وقطعان تتآكل أو يأكلها التراب»[6].

-حسب ما جاء في مذكرات"سانت أرنو": «لقد كانت حملتنا في الجزائر حملة تدميرية أكثر منها عملا عسكريا، ونحن اليوم وسط جبال مليانة لا نطلق إلا القليل من الرصاص، وإنما نمضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكواخ وأن العدو يفر أمامنا سائقا أمامه قطعان غنمه...إن بلاد بن مناصر بديعة حقا ولقد أحرقناها كلها...كم من نساء وأطفال اعتصموا بجل الأطلس المغطاة بالثلوج فماتوا هناك من الجوع والبرد»[7].

-تقرير اللجنة البرلمانية الفرنسية المؤرخ في سنة 1844[8]، حول الوضع العام في الجزائر، الذي جاء فيه: « وأحيانا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فأجبرنا المصابين على دفع ثمن تخريب ديارهم وشمل هذا حتى المساجد، إننا لم نحترم المنشآت الدينية ولا المقابر، لقد قمعنا أناسا يحملون رخص المرور، وذبحنا لمجرد تهمة جماهير بأكملها ظهر في الأخير أنها بريئة»[9].

ومن دون شك أن هذه الأعمال الإجرامية البشعة في حق الشعب الجزائري، كانت تهدف إلى شيء واحد وهو إبادته، لتحقيق ثلاث أهداف جوهرية: ضمان الأمن والاستقرار للوجود الفرنسي، والقضاء على المقاومة الشعبية المسلحة، وتشجيع حركة الاستيطان

1 - مصطفى، الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، م، و، ك، الجزائر، 1983، ص. 83-84.

2 -نفسه، ص. 85.

3 -**مصلحة الدراسات في المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954**: "من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر"، **المصادر**، ع، 5، المرجع السابق، ص. 205.

4 -نفسه، ص. 206.

5 -نفسه، ص. 206.

6 -نفسه، ص. 206.

7 سعدي، بزيان: جرائم فرنسا في الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2002، ص16.

8 - ذكر سعدي بزيان أن هذه اللجنة تشكلت بطلب من وفد كان قد ترأسه حمدان خوجة، وللعلم أن هذا الأخير قد توفي قبل سنة 1841؛ يراجع: احميده، عميراوي: دور حمدان بن عثمان خوجة في تطور القضية الجزائية 1827-1840، ص. 61.

9 - سعدي، بزيان: المرجع السابق، ص. 22.

الأوربي في الجزائر، ومقابل هذا فلقد كان لهذه السياسة انعكاس كبير في تراجع عدد السكان في الجزائر بشكل رهيب جدا؛ وهذا ما ستعبّر عنه الإحصائيات والمعطيات الآتية:

من خلال الإحصائية التي قدمها حمدان خوجة حول عدد سكان الجزائر والتي قدّرها بحوالي 10 ملايين نسمة[1] سنة 1830، فإن هذا العدد تراجع بشكل كبير جدا؛ ليصل إلى حدود 2.3 مليون نسمة سنة 1856[2]؛ ورغم التضارب الحاصل حول عدد سكان الجزائر فإنه يمكن القول أن الجزائر قد خسرت نصف سكانها في ظرف أربعين سنة[3]، وبخصوص عدد سكان الجزائر فإن الجنرال "بيجو" قدر في شهر نوفمبر 1844 عدد السكان ذوي الأصل الجزائري بـ 5 ملايين، وأضاف ربما ستة، ثم في شهر جانفي 1855 أعطى أمام مجلس النواب رقما آخر هو 4 ملايين[4].

ويذكر مصطفى الأشرف مُعقبا على هذه الإحصائيات: « إن هذا الرقم قد انخفض انخفاضا كبيرا فيما بعد نتيجة لتكرار أعمال الإبادة الجماعية وكثرة الوفيات بسبب حصار التجويع، وبقاء الأراضي بورا بسبب نزوح السكان ونفيهم، فضلا عن الأوبئة الناجمة عن الحرب المتواصلة والأشغال الشاقة والمعارك الفتاكة، وقد تصدى بعضهم من ذوي النوايا السيئة للرد على ما ذهب إليه "ميشيل هاربار"، فاستغربوا كيف يمكن للفرنسيين أن يقتلوا أثناء الاحتلال عدة ملايين من الجزائريين، والحقيقة أن هؤلاء يتظاهرون بالجهل، لأنهم لا يعرفون تمام المعرفة بأن حربا كالتي عرفتها الجزائر امتدادا وضراوة، لا تقتل بالحديد والنار فحسب، فالمجتمع الذي لا يموت بالسيف يموت بغيره»[5].

ولتأكيد مدى جسامة هذه الخسائر البشرية، سنكتفي بتقديم نموذج حي عن سكان مدينة وهران، التي رحل عنها سنة 1831 جميع سكانها وعددهم حوالي أربعين ألف؛ انخفض هذا العدد إلى حوالي ألف نسمة في 1838، و2120 نسمة في 1845، و2895 نسمة في1861، وهكذا فلم يزد عدد سكانها الأصليين إلا بحوالي ـ 775 نسمة خلال 24 سنة، وقد استخلص "أوغسطين بيرك" من هذه الأرقام التي استقاها من مصدر موثوق فقال: «هذه هي وهران: مدينة كل سكانها المسلمين جدد، وليس بينهم من كان يعيش فيها من قبل»[6].

وهكذا فلم يبق من سكان المدن التي دخلها الجيش الفرنسي إلى ثلث سكانها إن لم نقل منعدم تماما، تاركة المال للمستوطنين الأوربيين الذين وفدوا على الجزائر بعشرات الآلاف، وكانوا معول هدم لمختلف البنى التحتية للمجتمع الجزائري، بل ساهموا بشكل كبير وفعال في دفع وتيرة الاحتلال، بالقضاء على الشعب الجزائري، خصوصا في ظل حركة التسليح الواسعة التي تمتع به غلاة المستوطنين من الفرنسيين واليهود والأوربيين، وباتوا يشكلون خطرا كبيرا في هيئتهم المدنية العسكرية على المجتمع الجزائري الذي تناقص عدد سكانه تحت وقع جرائم الجيش الفرنسي بشكل رهيب وخطير جدا، وهو ما حاولت السلطات الفرنسية تقديم مبررات وهمية وراء هذا الانخفاض المتسارع، مبررات تبناها البعض وفنّدها البعض الآخر.

ولعل خير ما نختم به هذه الدراسة ما ذكره "اندري نوشي"[7]، الذي حاول تفعيل عامل الهجرة في تناقص عدد سكان الجزائر، لكن الهجرة لم تكن بهذه الملايين، وبالصورة التي حاول غلاة الاستعمار الفرنسي تقديمها لنا، قصد رفع الحرج عن فرنسا وجرائمها ضد الشعب الجزائري خلال القرن19[8].

الخاتمة: مما سبق ذكره، وبناء على ما توفر لدينا من معطيات تاريخية، يمكننا الخروج بجملة من الاستنتاجات التي نراها تخدم هذه الدراسة، وف ينفس الوقت ستفتح باب النقاش أمام جمهور الباحثين للبحث في الإشكاليات العالقة التي لم يسعنا المجال للإجابة عنها، ومن جملة هذه النتائج:

---

1 - **المرآة**، المصدر السابق، ص. 51.

2 - صالح، عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، المرجع السابق، ص. 354.

3 - عبد الله، العروي: مجمل تاريخ المغرب، ج. 3، ط. 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص. 130.

4 - مصطفى، الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، المرجع السابق، ص. 287.

5 - المرجع نفسه، ص. 287.

6 - المرجع نفسه، ص. 229.

7 - آندري، نوشي وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص،-ص. 294-295.

8 يراجع بشأن الإحصائيات المتعلقة بتطور عدد السكان خلال فترة الاحتلال: كمال، كاتب: أوربيون أهالي ويهود بالجزائر 1830-1962، ص-ص33-48.

-التأكيد على توظيف فرنسا لجملة من الأفكار والشعارات الجوفاء لتمرير مشروع الاحتلال وضمان نجاحه ليس في الجزائر فحسب وإنما في منطقة المغرب العربي والشمال الإفريقي، خصوصا فيما تعلق بالدعاية الكاذبة، وورقة الدين المسيحي، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إلى أي مدى استمر دعاة الاستعمار الفرنسي ومن يقف ورائهم من مختلف التيارات الفكرية والسياسية التي تمخضت عن الثورة الفرنسية في تغفيل الشعب الفرنسي والشعوب الأوربية للالتفاف وراء الاستعمار؟ ألم تشهد منظومة الحكم الفرنسي عدة عمليات لرفض ومعارضة السياسة الاستعمارية في الجزائر وجرائم الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري؟ ومن بين هؤلاء: العقيد "فيليبارت" و"أليكسيس توكفيل"، نابليون الثالث الذي دعا إلى المملكة العربية[1]، وكلفته هذه الفكرة التضحية بمنصبه، "جول فيري"، و"فكتور سبيلمان"...الخ، ومن ثمة بدأ جناح المعارضة لحرب الإبادة في الجزائر يمو مع مرور الوقت، ورغم بحاحة صوته فهو يؤكد لنا على حقيقة ما كان يجري في الجزائر؟

-لم تكن الحملة الفرنسية على الجزائر حملة عسكرية فحسب بقدر ما كانت حملة ذات منافع اقتصادية وقف ورائها جمهور البورجوازيين السانسيمونيين[2]، الميركانتليين، لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح والمكاسب على حساب الشعوب المستضعفة.

-التأكيد على كذب وزيف الوعود والعهود الفرنسية التي قدمتها للشعب الجزائري بداية من المنشور الذي وزع على الجزائريين، معاهدة 05 جويلية 1830، الآمان الذي منح للقسنطينيين سنة 1837، وللأمير عبد القادر سنة 1847، وحتى للمقرانيين فيما بعد، فكل العهود والمواثيق نقضت، ألم يعتذر "نابليون الثالث" للأمير عبد القادر عن غدر وخيانة الجنرال "لا مورسيير" الذي اتفق مع الأمير بشأن عهد الأمان الذي وافق عليه وأدمغه بختمه ثم غدر به؟ ألم تعترف العديد من الجهات الفرنسية غير الرسمية بالسياسة الشمطاء العرجاء القائمة على الابادة الجماعية للشعب الجزائري؟ ألم يمو هذا التيار بشكل مباشر خلال الثورة الجزائرية وبات يعرف هؤلاء أصدقاء الحركة الوطنية والثورة الجزائرية؟[3].

-لم يبق أي مجال للشك بأن الإبادة الجماعية وجرائم العدو الفرنسي منعزلة عن الحكومة الفرنسية، بل نابعة منها ومن منظري الاستعمار الفرنسي، وعندما طرحت هذه الفكرة في السنوات الأخيرة، في إطار الاعتراف بجرائم الحرب التي ارتكبتها ضد الجزائريين، راحت تتنصل من جرائمها تحت ذرائع وهمية وواهية على أساس أن هذه الأعمال كانت منفردة، وارتكبها ضباط وقادة دون الرجوع إلى السلطة الفعلية؟ وعندما تم مجابهتها بالحقائق والمعطيات العددية راحت تقدم مبررات واهية كالهجرة أو الطعن في الروايات التاريخية تارة، وتارة أخرى بسبب الأوبئة والمجاعات التي تعرضت له الجزائر، ولكن يبقى السؤال المطروح في الأخير هو: ألم تكن فرنسا وراء كل هذه النكبات والمصائب التي عرفها المجتمع الجزائري؟.

-نجاح السياسة الاستعمارية الفرنسية في شقها العسكري بالقضاء على الملايين من الشعب الجزائري خلال القرن التاسع عشر، من خلال مراهنتها على الجيش الفرنسي، الأسلحة المختلفة والمتطورة، الأساليب الجهنمية والوحشية بدرجة كبيرة وجنونية، خاصة في عهد الجنرال "بيجو"، المعروف بسياسة الأرض المحروقة، الإبادة الجماعية، التهدئة، السيف والمحراث، التجويع.

[1] يراجع بهذا الشأن:
-Annie Rey-GOLDZEIGUER: le Royaume Arabe la politique Algérienne de Napoléon III 1861-1870.

[2] يراجع بهذا الخصوص: مصطفى، عبيد: الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر 1833-1870، دار المعارف الدولية، الجزائر، 2013.

[3] يراجع بهذا الخصوص أشغال الملتقى الدولي الموسوم بأصدقاء ثورة التحرير الجزائرية 1954-1962 مواقف وكتابات المنعقد يومي 25-26 نوفمبر 2014 بجامعة الإمام عبد الحميد بن باديس بمستغانم، حيث تناول كثير من الباحثين في مداخلاتهم الخلفية التاريخية لجرائم جيش الاحتلال الفرنسي خلال القرن 19.